مهرجان القراءة للجميع



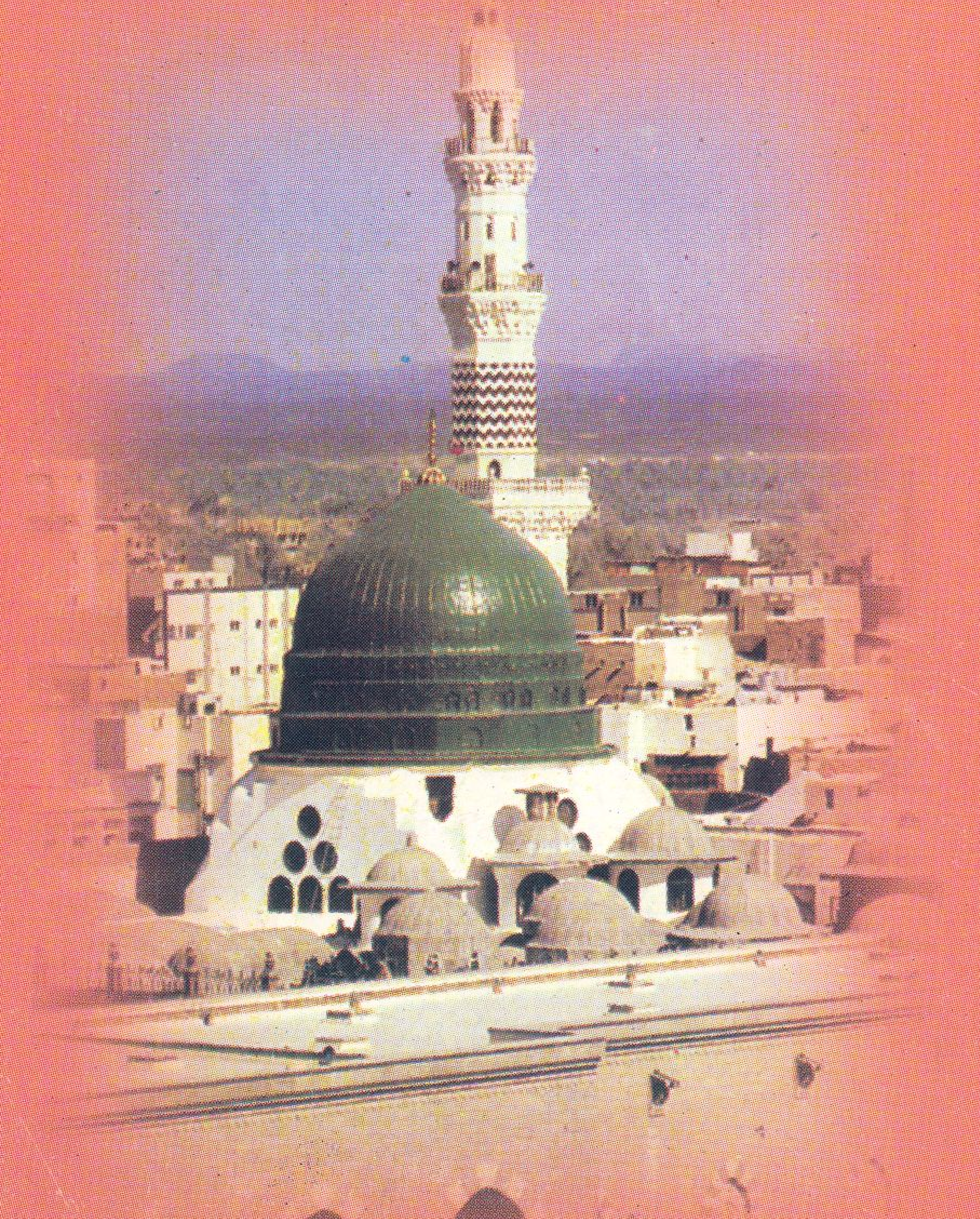
د. أحمد شلبى

من السيرة النبوية العطرة

الجزء الثامن

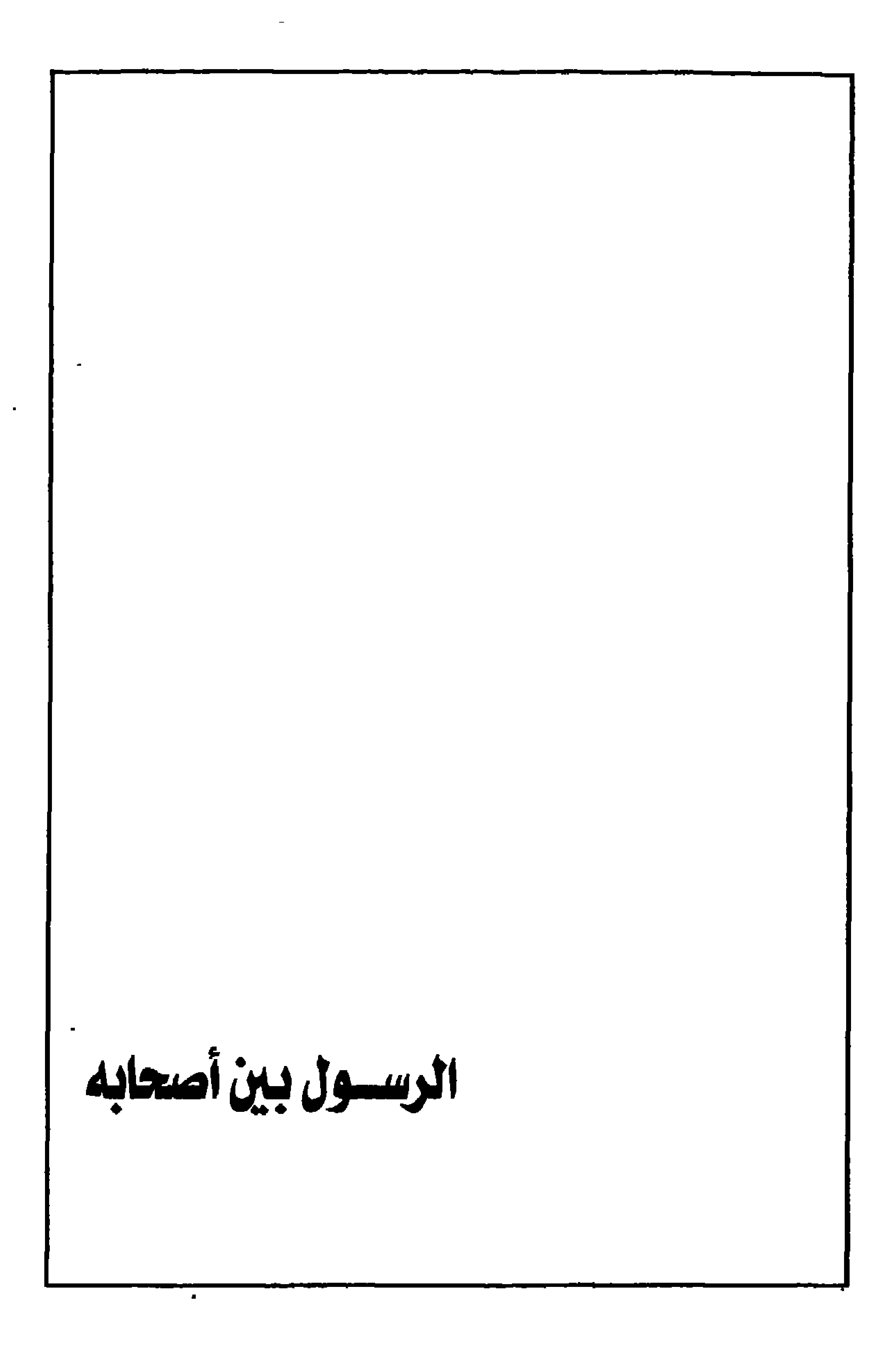
الرسولُ بينَ أصحابه

الأعمال الدينية





الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الرســول بين أصحابه

من السيرة النبوية العطرة

(٨)

الرسول بين أصحابه

- الرسول يربى الفرد المسلم
- الرسول يربى المجتمع الإسلامى
- أخلاق إسلامية يغرسها الرسول

د. أحمد شلبى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

من السيرة النبوية العطرة (٨)

الرسول بين أصحابه ـ الرسول يربى الفرد المسلم

الرسول يربى المجتمع الإسلامى

أخلاق إسلامية يعرفها الرسول

د. أحمد شلبى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

صبرى عبد الواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

الرسول بين أصحابه

حقُّ الصديقِ فى الاسلام :

وَضَعَ الرسولُ صلواتُ الله عليه أُسُسَ الحُبِّ والصَّداقةِ بينَ المسلمينَ مُنْذُ آخَى بينَ المسلمينَ بعضِهم مع بَعْضٍ فى مكةَ ، ثم آخى بيَن المهاجرينَ والأَنصارِ بالمدينةِ ، فهو بهذه الْمُؤَاخَاةِ خَلَقَ رباطاً جديداً بينَ الأصحابِ وصل إلى رباطِ النَّسبِ وأَحيانًا زاد عليه ، واستمرَّ الرسولُ فى حياتِه اليوميَّةِ يُقَوِّى هذا الرباطَ ويُوصِي به ، وفيما يلى بعضُ أَحاديثِ الرسولِ فى هذا المجالِ :

– خيرُ الأَصْحَابِ عندَ اللهِ تعالى خيرُهُمْ لصَاحِبِهِ . (رواه الترمذى) فكُلَّما كانَ الإنسانُ شديدَ الوفاءِ والإخلاصِ لصاحِبِهِ كانَ أَقْرَبَ إلى الله .

– لن تَدْخُلُوا الجنةَ حتى تُؤْمِنُوا ، ولن تؤمنوا حتَّى تَحَابُّوا (أى حتى يُحِبَّ بعضُكم بعضاً) .

وفى الحديث القدسى :

– ما لعبدِى المؤمنِ عندِى جَزَاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ من أهلِ

الدنيا ، ثم احْتَسَبَهُ (أى صَبَرَ على قَضَاءِ الله) ، إلا الجنَّةَ (رواه البخارى) .

وهذا الحديث يَدُلُّنا على أَلَم الصديقِ لِفراقِ صديقِه ، ذلك الفِراقِ الذى يَضْمَنُ للإنسانِ الجنةَ إذا صَبَرَ عليه .

ويقولُ الرسولُ عن علىٍّ : علىٌّ أخى فى الدنيا والآخرةِ .

الرسول مثال رائع فى معاملة الأصدقاء :

ومن هذه الأحاديثِ الشريفةِ نَستَطيعُ أن نُدْرِكَ قيمةَ الصُّحْبَةِ والأَصْحَابِ ، وكانَ سُلُوكُ الرسولِ صلواتُ الله عليه هَدْياً رائِعاً فى هذا المجالِ . فهو يتحدَّثُ عن أصدقائِهِ أَرْوَعَ حديثٍ ليَضرِبَ لنا المَثَلَ فى طِيبِ الصُّحْبَةِ ، وصفاءِ الودِّ ، فهو يقولُ عن أبى بكرٍ :

ما أَحَدٌ أَعْظَمَ عندِى يَداً من أبى بكرٍ ، وَاسَانِى بِنفسه وزَوَّجَنِى ابْنَتَه .

ويقولُ عن أبى بكرٍ وعمرَ : أبو بكر وعمرُ منِّى بمَنْزِلَةِ السمعِ والبصرِ .

وكانَ الرسولُ من أَكْثَرِ الناسِ عِرْفَاناً بالجَمِيلِ ، وَمِن هنا كان يُوصِى دائماً بالأنصارِ ، ويذكرُ أنَّهُمْ فتَحُواله ولأصحابه

قلوبَهم وبُيُوتَهم ، وكانوا خيرَ رُفْقَةٍ للمهاجرين . وهو فى آخر خطابٍ يُلْقِيهِ يَهْتِفُ بالمهاجرينَ قائلًا : « استَوصُوا بالأنصارِ خيراً ، فإنَّهم كانُوا عَيْبَتِى (موضِعَ سِرِّى ومَلَاذِى) التى أَوَيْتُ إليها ، فأَحْسِنُوا إلى مُحْسِنِهم وتجاوَزُوا عن مُسيئِهِم » .

والرسولُ بهذا الحديثِ الشريفِ يُبْرِزُ للمسلمِينَ أَنَّ الصديقَ بَشَرٌ ، وأَنه من المُمْكِنِ أن يُخْطِىءَ أو يَزِلَّ ، فلابُدَّ أَنْ يكونَ الإنسانُ مُستَعِدًّا للعفوِ عن زَلَّاتِ صديقِهِ ، ونسيانِ هَفَوَاته ، لتدومَ الصَّدَاقَةُ وَتَزْدِهر ، وليس من الصداقةِ فى شىءٍ أن يَتَلَمَّسَ الصديقُ خَطَايَا صديقِه ، وأَن يَضُمَّها بعضَها إلى بعضٍ ناسِياً مايستوجِبُهُ الْوُدُّ ورَحِمُ الصداقةِ من عفوٍ وغُفْرانٍ .

ويتحدث أَنَسٌ عن الرسولِ صلواتُ الله عليه وعنْ صِلَتِهِ بأصحابِه حديثاً فَيَّاضاً نقتَبِسُ منه بضعةَ سُطُورٍ :

كان رسولُ اللهِ يتفقَّد أصحابه جميعاً حتى أن أَحَدًا منهم لم يكن يَظُنُّ أَنَّ هناك من هو أكرمُ منه عندَ رسولِ اللهِ ؛ وكان إذا جلسَ إلى أصحابِه صَبَرَ حتى ينصرفَ عنه أصحابُه ، وكان يُجِيبُ من دعاه إلى دَارِه ، ويقبلُ الهديةَ

ويثيبُ عليها ، ويَزُورُ أصحابَه ، ويتعَرَّفُ أحوالَهم ، ويعودُ مَرْضَاهُمْ ، ويُلاعِبُ صبيانهم، وكانَ إذا الْتَقَم أَحَدٌ أُذُنَه ليهمِسَ له بشيءٍ صَبَرَ له ، ولم ينحِّ عنه رأسَه حتى يَنْتهِيَ الرجلُ من كلامِه ، وما أخذ أحدٌ بيدِه إلا استَبْقَاهَا الرسولُ حتى يُرْسِلَها صاحبُه ، وكانَ ينادِى الناسَ بأحبِّ أسمائِهم إليهم ، ويُكَنِّيهم تكريماً لهم ، ولا يَقطَعُ على أَحَدٍ منهم حديثَه حتى ينتهِىَ منه .

وكان يتمثَّلُ فى رسولِ خلقُ الإيثارِ بأَسْمَى دَرَجَاتِهِ ، فلم يُعْرَف عنه قط أنه خَصَّ نفسَه بشيءٍ .

وكانَ الرسولُ يحاولُ أَنْ يَتَعَرَّفَ على حاجاتِ أَصحابِه ويعملُ على قَضَائِها لهم ، وكانَ يَكْرَهُ أَنْ يَسْتَخْدِمَ أصحابَه فى شيءٍ يَخُصُّهُ ، يَرْوِى أبو هريرةَ أنه ذَهبَ مع الرسولِ إلى السوقِ ليشترِىَ سَرَاوِيل ، فاشْتَراها من تاجرٍ ، وحاولَ أبو هَريرةَ أنَ يحمِلَها عنه ، فقالَ الرسولُ : صَاحِبُ الشيءِ أحقُّ بِشَيْئِهِ أَنْ يحمِلَه .

واستِكْمَالًا لهذه القصةِ يقولُ أبو هريرةَ إنَّ الرسولِ كانَ سهلًا إذا باعَ وإذا اشترَى وأنه أَوْفَى التاجرَ وزَادَ ، وأنَّ التاجرَ حاولَ أَنْ يقبِّلَ يَدَ الرسولِ ، فَجَذَبَ الرسولُ يَدَه منه ،

وقالَ : هذا ماتَفْعَلُه الأَعَاجِمُ بملُوكِهَا ولستُ بمَلِكٍ ، إنما أنا رجلٌ منكم .

وكانَ الرسولُ يحبُّ الدُّعابَة ، ويَبْتَسِمُ لها ، ويَرَى أنها تَخْفيفٌ عن النفسِ من مشكلاتِ الحَياةِ ، وربما شارَكَ فيها ، فيروَى أنه قال لعمَّتِه صفيةَ وكانتْ قد تقدَّمَتْ فى السنِّ : ياعمةُ ، لا يَدْخُلُ الجنةَ عجوزٌ ، فأَجْهَشَتْ صفيةُ بالبكاءِ ، إذ حَسبَتْ أنها ستُحْرَمُ من الجنةِ ، ولكنَّ الرسولَ سرعانَ ما قرأَ لها وهو يَبْتَسمُ قولَه تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فجعلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ، عُرُبًا أَتْرَاباً » فَفَهِمَتْ صفيةُ قَصْدَه ، وعادَتْ إلى السرورِ والأَمل .

ومن دُعَابَاتِه أَنَّ أَحَدَ المسلمينَ طَلَبَ إليهِ أَنْ يحمِلَهَ على بعيرٍ ، فقال له : سأَحْمِلُكَ على وَلَد الناقةِ ، وحَسِبَ الرجلُ أَنَّ الرسولَ سيقدِّم له بعيراً حديثَ الولادةِ . فقال : يارسولَ الله : ماأَصْنَعُ بولَدِ الناقةِ ؟ فأجابه الرسولُ : أَلَيْسَ البعيرُ وَلَدَ ناقةٍ ؟ .

وهناك قصةٌ شهيرةٌ تُرِينَا أَنَّ الرسولَ كانَ بينَ أصحابِه يَبْدُو كواحدٍ منهم ، ولا يُحبُّ أَنْ يمتازَ عنهم بشىءٍ ، فيُرْوَى أَنه

كانَ مع بعضٍ أصحابِه ، وأَرَادُوا إعدادَ الطعامِ ، وأَعَدُّوا لذلك شاةً ، فقالَ أحدُهم : عليَّ ذبحُها ، وقالَ آخرُ : وعليَّ سَلْخُها .... فقال الرسولُ : وعليَّ جَمْعُ الحطبِ . فقالوا : يارسولَ اللهِ نَكْفِيكَ هذا . فأجابَ : إننى أَعْرِفُ أنكم تُحِبُّونَ أَنْ تكفُونى هذا ، ولكنِّى أُحِبُّ أن أشَارِكَكُمْ الأعمال ، وأَنْ أَكُونَ كواحدٍ منكم ولا أَمْتَازَ عليكم بشىءٍ .

وَحَدَثَ مثلُ ذلك عندَما جاءَ له وفدُ النجاشِيِّ زعيمِ الحبشةِ ، فقامَ يَخْدُمهم بنفسِه ، فقالَ له أصحابُه : نحنُ نكفِيكَ هذا . فقالَ : إنهم كانوا لأَصْحَابِنَا مُكْرِمينَ ، وإنى أُحِبُّ أَنْ أَخْدُمَهم بنفسِى .

ومن الأدبِ العالِي الذى قَدَّمَهُ الرسولُ لأصحابِه فى معاملَتِهم بعضِهم لبعضٍ قولُه : من اطَّلَعَ منكم فى كتابِ أخيه بغيرِ أمرِه ، فكأنما تَعرَّض للنارِ .

وكانَ الرسولُ يَأْبَى أَنْ يظهرَ فى أى مظهرٍ من مظاهرِ السلطانِ أو الرياسةِ .

وقَدِمَ على أصحابِه مرَّةً فوقفوا له ، فصاحَ بهم : لا تَقُومُوا كما تقومُ الأعاجمُ .

وكانَ الرسولُ إذا جاءَه أصحابُه وهو يصلِّي خفَّفَ من صلاتِهِ ليسأَلَ حاجَتَهُم ، وربما عادَ للصلاةِ بعدَ ذلك .

وكان الرسولُ مناراً هادياً لأصحابِه في مجالِ السَّماحةِ والصفاءِ ، وفي إهمالِهِ مُتَعَ الحياةِ حتَّى لا تؤثِّرَ هذه الْمتَعُ عَلَيه ، فيُرْوَى أنه كانَ أَطيبَ الناسِ نفساً وأَكْثَرَهم تبسُّماً مالم يَنْزِلْ عليه قرآنٌ أَو يَعظُ أَو يَخْطُبُ ، وضَرَبَ لأَصحابِه المثَلَ في الاستهانةِ بالمالِ ، فلم يَهْتَمَّ أبداً بالادِّخارِ والغنى ، وإنما كانَ خُلقُه الرِّضَى والإِيثارَ حتى لَيُرْوَى أنه لم يَشْبَعْ قط ، وقد عانَى الجوعَ أكثرَ من مرَّةٍ ، وكانَ زُهدُه في اللباسِ كزهدِه في الطعامِ ، ولم يتركْ رسولُ اللهِ ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا أمةً ولا شيئاً إلا بغلَتَه وسلاحَه ، وأرضاً تركها صَدَقَةً ، وهو القائلُ في ذلك : نحنُ معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ ، ما تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ ، ولذلك لم تَرِثْ زوجاتُه شيئاً مما كانَ له بخَيْبَر وفدك ، فقد رَدَّ أبو بكرٍ ما كان يَمْلِكُه الرسولُ لبَيْتِ المالِ ، وعاشتْ الزوجاتُ بما حُدِّدَ لهنَّ من أَسْهُمٍ في بيتِ المالِ .

ومن تكريمِ الرسولِ لأَصحابِه وحبِّهِ لهم أنه كانَ يَغْفِرُ انحرافَ ذَوِيهم ، ولعلَّ أبرزَ مثالٍ لذلكَ هو احتمالُه صلَّى اللهُ عليه وسلمَ لنفاقِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وكَرَاهِيَتِهِ للإِسلامِ ولرسولِ

الإسلامِ ، وكان هذا الاحتمالُ منْ أجلِ عبدِ الله ابْنهِ ، فقد كانَ هذا مسلماً حَسَنَ الإسلامِ على الرَّغمِ من نفاقِ أَبيهِ ، وقد وَصَلَ من تكريمِ الرسولِ للابنِ أَنْ قدَّمَ قميصَه الطاهرَ ليُكَفَّنَ فيه الأبُ المنافقُ بعدَ موتِه .

وقد بَلَغَ الرسولُ القمَّةَ التى لايَصِلُها أحدٌ سِوَاهُ عندَما نزلتْ الآيةُ الكريمةُ : « استَغْفِرْ لهم أو لاتَسْتَغْفِرْ لهم إنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم » (سورة التوبة الآية ٨١) فيُرْوَى أنَّ الرسولَ لما نَزلتْ هذه الآيةُ قالَ : لو أَعْلَمُ أنِّى إنْ زدتُ عن السبعينَ غُفِرَ له ، لزِدْتُ عليها .

أثر هذه التربية فى الصحابة :

وإذَا كانَ الرسولُ قد بَلَغَ هذا المَدَى من حُبِّه لأَصحابِهِ ، وتعاوُنِهِ معهم ، وحَيَاتِه بينَهم ، فقد كَافَأَه أصحابُه بِصُوَرٍ من التَّفَانِى فيه ، والحبِّ له ، والتضحيةِ من أجلِه بكلِّ مايَمْلِكُونَ ، فأبو بكر الصدِّيقُ الذى كانَ غنيًّا فى مطلَعِ الإسلامِ أَنْفَقَ أكثرَ مالِهِ فى مكةَ ، وأَخَذَ ماتَبَقَّى من المالِ معه وهو مهاجرٌ مع الرسولِ . ثم إنَّهُ كانَ كما ذكرنا من قبلُ يَسْبِقُ الرسول أحياناً وهما فى الطَّرِيقِ إلى المدينةِ ويَتْبَعُهُ أحياناً ، فلمَّا سأَلَه الرسولُ عن ذلك قال : أتذَكَّرُ التربُّصَ فأَسبِقُك ،

وأتذكَّر اللَّحاقَ فأَتبَعُكَ ، فهو بذلك يُرِيدُ أَنْ يَتَحَمَّلَ الرَّدَى عن الرسولِ .

ويُرْوَى كذلك أَنَّ أَحَدَ الصحابةِ واسمُهُ زيدُ بنُ الدَّثنةِ ، وَقَعَ فى أَسْرِ المشركين ، فاشْتَرَاه صفوانُ بنُ أمية لِيَقْتُلَه بأَبِيه ، وأَوْقَفَهُ صفوانُ وبَدَأَ يطلِق السهامَ حولَه من كلِّ جانبٍ ليُخِيفَه ، ونَادَاهُ أَبُو سفيانَ وهو فى هذه الحالِ قائلًا : أَنْشُدُكَ اللهَ يا زيدُ ، أَتُحِبُّ أَنَّ محمداً الآنَ يُلاقِى حَتْفَه بدلًا منكَ وأَنتَ فى أَهلِكَ ؟ فصاحَ زيدٌ قائِلًا : واللهِ ما أُحِبُّ أَنَّ محمداً الآنَ فى مكانِه الذى هُوَ فيه تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ ، وأَنَا جالِسٌ فى أهلِى . قال أبو سفيانَ : ما رأيتُ أَحداً يحبُّه أصحابُه كما يُحِبُّ أصحابُ محمدٍ محمداً .

وفى غزوةِ أُحُدٍ عندما اتَّجهَتْ جُهُودُ المشركينَ للقضاءِ على محمدٍ وَقَفَ الصحابةُ دِرْعاً حامياً للرسولِ يَتَلَقَّوْنَ عنه الضَّرَباتِ ، ويَهْتِفُون بأَنَّهُمْ لا تَطِيبُ لهم حياةٌ إِذَا اغتِيلَ الرسولُ أَوْ نَزِلَ به مكروهٌ ، وسَنَرَى تفاصِيلَ ذلك عند الحديثِ عن الغزواتِ .

وكثيراً ما كانَ الصحابةُ يُعَامِلُ بعضُهم بعضًا على النَّسَقِ الذى أَلِفُوه من الرسول صلوات الله عليه ففى غَزْوةِ مُؤْتَةَ قُتِلَ

الأُمراءُ الثلاثة الذين عَيَّنهم الرسولُ للقيادةِ وهم : زيد بن حارثةَ ، وجعفرُ بنُ أبي طالبٍ ، وعبدُ الله بنُ رُوَاحَةَ ، فالْتقطَ ثابتُ بنُ أكرم الأنصاريُّ اللواءَ ، وصاحَ بالمسلمينَ : أَنْ اتَّفِقُوا على رجلٍ منكم يكونُ أميراً وقائداً ، فقالَ بعضُ الناسِ : أنتَ يا ثابتُ ، فقالَ ثابتٌ : ماأخذتُ اللواءَ لأُصبحَ قائداً . ونَظَرَ إلى خالدِ بنِ الوليد وقال : أنتَ يا خالدُ أَحَقُّ باللواءِ لأنكَ أعلَمُ بشئونِ الحربِ .

فقالَ خالدٌ لثابتٍ : أنتَ أكبُر سِنًّا ومِنْ أَهلِ بدرٍ . فأجاب ثابت : يا خالدُ ، ماأخذتُ اللواءَ إلا لكَ ، وصاحَ بالمسلمين : أَتَرْضَوْنَ بخالدٍ أميراً ؟

قالَوا : نعم . وأصبحُ خالدٌ أميرَ الجيشِ .

ومن خلق الإيثارِ بينَ الصَّحابةِ ماسَبَقَ أن ذكرناه عندَ الحديثِ عن « طلحة » فقد كان هو وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ يمتلكانِ أرضاً زِرَاعيَّةً مشتركةً ، ثم اقْتَسَمَاها ، وأرادَ عبدُ الرحمن أَنْ يسقِىَ أرضَه من خليج طلحةَ ، فمنَعَه طلحةُ لأن لعبدِ الرحمن وسيلةً أُخْرَى لسَقْيِ أرضِه ، فَشَكَا عبدُ الرحمنِ للرسولِ ، فقال الرسولُ لعبدِ الرحمن : أتشكو رجُلاً له الجنةَ ؟

فسرَّ عبدُ الرحمن بهذه البشرى لخصْمِهِ ، وأسْرَعَ يبلِّغُه

بها . فقالَ طلحة لعبدِ الرحمن : أَبَلَغَ من المالِ أَن تَشكوَنى بسَبَبِه للرسولِ ؟

فقالَ عبدُ الرحمن : قد كانَ ذلكَ للأَسفِ .

فقالَ له طلحةُ : أُشهِدُ اللهَ أَنَّ هذه الأَرضَ لك .

★ ★ ★

وهكَـذَا كانتْ حيـاةُ الـرسولِ بيـنَ أصحابِـه ؛ وَضَعَ لهم نَمُوذجَ التعاونِ والحُبِّ فاستجابُوا ، وظَهَرَ مجتمعٌ مثالىٌّ ما أَحْوَجَنَا أَنَ نَتَدَارَسَهُ وأن نتمثَّلَ به ، فإن فعلنَا نِلْنَا خيرَ الدنيا والآخرةِ ، وصَدَقَ اللهُ العظيمُ الذى يقولُ « لَقَدْ جَاءَكُمْ رسولٌ من أَنْفُسِكُمْ ، عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عليكم ، بالمؤمنينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ . (سورة التوبة الآية ١٢٨) .

فلْنتعلَّمْ من الرسول

وبعدُ ، أَرجو أَنْ يسمحَ لى القارىء الكريمُ أَنْ أَقُصَّ هنا قصةً من الواقِعِ تَرْتَبِطُ بهذا الموضوعِ ، وقد تردَّدْتُ طويلًا فى ذكرِها ، ولكنِّى وجدتُنى فى النهايةِ مُلْزَماً بذكرها بهدفِ أَنْ يحاوِلَ كلُّ مُعَلِّمٍ أَنْ يعمَلَ بما يُوصِى به ، وأَلَّا يكونَ بفعلِه بعيداً عما يُقَدِّمُه من عظاتٍ :

كنتُ في السودانِ قد سجَّلْتُ عدةَ أحاديثَ للتليفزيون ، وكانَ « الرسولُ بينَ أصحابِه » واحداً من هذه الأحاديثِ ، وعندَما أُذِيعَ هذا الحديثُ كنتُ أَجْلِسُ مع نُخْبَةٍ من الأَصدقاءِ ، فلما انْتَهَى الحديثُ أَبْدَوْا إعجابَهم به ، ولكنِّى قلت لهم : إنَّ هناك نقطةً أهمَّ مِن الإعجابِ هى : هل أُعَامِلُكم على هذا النَّمَطِ أو أنِّى أَقولُ شَيئاً ولا أُعاملكم به ؟ ونَظَرَ بعضُهم إلى بعض وقالوا : حقيقةً إنكَ تُعَامِلُنَا على هذا النمطِ بدونِ شكٍّ .

قلتُ : الحمدُ لله . إنى أَكْرهُ أَنْ يقولَ الباحثُ شيئاً وهو مُتَخَلِّقٌ بسواه وصدَق اللهُ العظيمُ الذى يقولُ : « يأيُّها الذينَ آمَنُوا لِمَ تقولونَ مالا تَفْعَلُون ؟ كَبُرَ مقتاً عندَ اللهِ أن تقُولُوا مالا تَفْعَلُون » (سورة الصف ٢ — ٣) .

فإذا كانَ الرسولُ مِثالاً ونَمُوذَجاً للمسلمين ، فإننا مُلْتَزِمُونَ أَنْ نَتَأَسَّى به بقدْرِ الطَّاقَةِ ، وهذه دعوةٌ أُوجِّهُهَا لكلِّ قارئٍ ، وأُلْزِمُ نفسي بها ، أَنْ نُحَاوِلَ بإصرارٍ أن نُعامِلَ أَصدقاءَنا على النَّمَطِ الذى تعلَّمناه من الرسولِ صلواتُ اللهِ عليه .

* * *

هناك رِحلةٌ طويلةٌ من الكفرِ إلى الإيمانِ ، وكانَ على العربِ الذين تركُوا عبادةَ الأوثانِ ودخلُوا دينَ الإسلامِ أنْ يُدْرِكوا أبعادَ هذه الرحلةِ ، وأن يعرِفُوا مايَسْتَوْجبُه الإيمانُ الحقُّ من التزاماتٍ ، يُروَى عن على بن أبى طالب أنه قالَ : كُنَّا جلوسًا عندَ الرسولِ فأقبلَ علينا رجلٌ من العَالِيَةِ (أى من نَجْدٍ) فقالَ : أخْبِرْنى يا محمد عن أشدِّ شيءٍ فى هذا الدينِ وعن ألْيَنِ شيءٍ فيه ؟ ، فقالَ له الرسولُ : ياأخَا العالِيَةِ : ألْيَنُ شيءٍ فى هذا الدين شهادةُ أنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وأشَدُّه ياأخا العَالِيَةِ الأمانةُ ، ألَا إنه لا دينَ لمن لا أمَانَةَ له وإنْ صامَ وصَلَّى .

البعدُ عن الرذائِلِ ، ومحاولةُ اكتسابِ الفضائلِ :

وعلى هذا فقد قامَ الرسولُ صلواتُ الله عليه بالمدينةِ بجَهْدٍ كبيرٍ ليقدِّمَ للمسلمينَ الآدابَ الجديدةَ التى خَلَقَها الإسلامُ ، والأخلاقَ السامِيَةَ التى لَمْ يَكُنْ للمجتمعِ البشرىِّ عهدٌ بها ، وقد بَذَلَ الرسولُ فى ذلك أقصَى الجهدِ لإعادةِ بناءِ الفردِ عقبَ دُخولِهِ الإسلام ، فأخذَ الرسولُ يَعْمَلُ فى جانِبَيْنِ

مُتَوَازِيَيْنِ الجانبُ الأوّلُ تطهيرُ الفردِ المسلمِ من أنواعِ الشرورِ والآثامِ التى كانَتْ مُتَفَشِّيَةً ، والتى تَمِيلُ لها النفسُ الأَمَّارَةُ بالسوءِ ، أما الجانبُ الثانى فهو العملُ ليكْسِبَ الفردُ المسلمُ أسمىَ الصفاتِ وأكرَمَ السجايا ، وذلك بتحْدِيدِ الفضائِلِ والحثِّ على اتِّباعِها والتمسكِ بها ، وكانَ الرسولُ صلواتُ اللهِ عليه يَتَّخِذُ كلَّ الوسائِلِ لتربيةِ الفردِ المسلمِ وإعادةِ بنائهِ بالقولِ حيناً وبالسلوكِ حيناً آخَرَ ، وكان تأْثِيرُ الرسولِ بكلامِه وفعلِه شديداً على المسلمينَ ، فظهرتْ طبقةٌ من الصحابَةِ بَرَزَتْ فيهم صفاتُ البرِّ ، واخْتَفَتْ صفاتُ الانْحِرَافِ ، وسنعيشُ مع سيدِنا رسولِ اللهِ نَعْرِضُ كلامَه وتصرُّفاتِه وهو يعمَلُ على تجنيبِ المسلمينَ الرذائِلَ ، وعلى شدِّهِمْ إلى الخيرِ وتمكِينِ الفضائلِ من نُفُوسهم ، وليس ما نَعْرِضُه هنا إلا محاولةً لتجديدِ العهدِ بصدرِ الإسلامِ حتى نَسْتَجِيبَ الآنَ لتعاليمِ الإسلامِ ولرسولِ الإسلامِ وهو يُرْشِدُ ويعلِّمُ ويوجِّهُ .

الظـلم :

وأَوَّلُ ما نبدأُ به من صفاتِ الرذائِلِ التى حَارَبَها الرسولُ صفةُ الظُّلمِ ، فالظلمُ من أخطرِ الصفاتِ التى تُهَدِّدُ

المجتمعاتِ ، وهو عدوانُ قويٍّ على ضعيفٍ ، كأنَّما ظنَّ القويُّ أنَّه سيظلُّ قويًّا ، وحَسِبَ أنَّ الضعيفَ سيظلُّ ضعيفاً ، وهو حسابٌ خاطِىءٌ ، فليسَ هناك شيءٌ يدومُ ، ولذلك نَجدُ سيدَنا رسولَ اللهِ يهاجِمُ الظلمَ ويحذِّر منه ، قال عليه السلام :

– اتَّقُوا الظلمَ فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ .

– اتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنَّه ليس بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ (متفق عليه) .

ويبينُ رسولُ اللهِ أنَّ الظالمَ سيُقَادُ منه ، ولن يُفلِتَ من العذابِ ، قال عليه السلامُ : إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظالمِ حتى إذَا أخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ .

وإذا كان الظلمُ نهباً أو استيلاءً فإنَّ الظالمَ يطوَّقُ يومَ القيامةِ بما نَهَبَهُ أو اغْتَصَبَه ، قال عليه السلامُ : مَنَ ظَلَمَ قَيْدَ شبرٍ من الأرضِ طُوِّقَهُ من سَبْعِ أرَضين (متفق عليه) .

ويكونُ الظلمُ أبشعَ وأفحشَ لو كان وَاقِعاً من وليِّ الأمرِ على الرعيةِ ، فوليُّ الأمرِ يُفْتَرَضُ أن يكونَ حامياً من الظلمِ وحارساً للرعيةِ ، فإذا انْقَضَّ عليهم ظالماً وجائراً كَانَ عقابُه مضاعفاً وحسابُه عندَ اللهِ شديداً ، قال ﷺ :

– ما مِنْ عبدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رعيةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيَّتِهِ إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ .

– اللهمَّ مَنْ وَلِىَ من أَمْرِ أُمَّتِى شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشقُقْ عليه . ومَنْ وَلِيَ من أمرِ أُمَّتِى شيئاً فَرَفِقَ بهم فارفُقْ به .

ومن الظلمِ ظلمٌ يُنْزِلُه الابْن بوالِدَيْهِ وهو يسمَّى العُقُوقَ ، والرَسولُ يَعُدُّ هذا العقوقَ نوعاً من الكبائرِ ويخوِّفُ بأنَّ عقوبَتَهُ لن تكُونَ فى الآخرةِ فحسبُ ، وإنما يُعَجِّلُ اللهُ بها فى الدنيا ، وفى العقوقِ وعقوبتِهِ يقولُ ﷺ :

– الكبائِرُ ثلاثةٌ : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدَيْنِ ، وقَتْلُ النفسِ بغيرِ حقٍّ .

– ثلاثةٌ لا يَنْفَعُ معهنَّ عملٌ : الشركُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدين ، والفِرَارُ من الزَّحْفِ .

– كلُّ الذنوبِ يؤجِّلُ اللهُ منها ما يشاءُ إلى يومِ القيامةِ إلا عقوقَ الوالدَيْن فإنَّ اللهَ يُعَجِّلُه لصاحبِهِ فى الحياةِ قبلِ المماتِ . .

الرشـــوة :

ومن الأَخلاق الذَّميمةِ التى نَهَى الرسولُ عنها وكرَّرَ النَّهْىَ ، الرشوةُ ، وهى داءٌ يُصيبُ بعضَ الناسِ ويُوهِمُهُمْ بأنَّه يَجْلِبُ لهم الخيرَ ، وهو فى الحقِّ يَجْلِبُ عليهم البلاءَ ، ومالُ الرِّشْوَةِ يَسْحَقُ ما يقابِلُه من أموالٍ عند الْمرْتَشِى ، وفى عصرِنا الحاضرِ تَنْتَشِرُ الرشوةُ باسمها الحقيقيِّ أحياناً ، وباسمِ الهديَّةِ أحياناً أُخْرَى ، وهى هنا وهناكَ سُحْتٌ وضلالٌ ، قال ﷺ :

- ما فَشَتْ الرشوةُ فى قومٍ إلَّا أُخِذُوا بالرُّعْبِ (صحيح) .

- لَعَنَ اللهُ الراشِى والمُرْتَشِي . (رواه الأربعة) .

- من ارْتَشَى فى الحكمِ شُدَّتْ يسارُه إلى يَمِينهِ ثم رُمِيَ به فى قَعْرِ جَهَنَّم (رواه الحاكم) .

- الرشوةُ فى الحُكْمِ كُفْرٌ وهى بينَ الناسِ سُحْتٌ (رواه الطبرانى) .

- هدايا العمالِ غُلُولٌ (متفق عليه) .

الكبر :

ويحذّر رسولُ الله مِن الكبرِ ، ويَدُلُّ تحذيرُهُ على أن المتكبِّرَ جاهلٌ نسيَ تكوينَه ومبدأَ حياتِهِ ومُنتَهَاهَا ، ولو أنه تَذَكَّرَ ذلك أو تذكر من سَبَقُوه بما كان لهم من جاهٍ وسُلطانٍ ، ثم ما انْتَهَى إليه أمرُهم ، ما بقى فى نفسِهِ شىءٌ من الكِبْرِ ، وعن خُلقِ الكبرِ يقولُ ﷺ :

من كانَ فى قلبِه مثقالُ حبةٍ من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ كَبَّه اللهُ على وَجْهِهِ فى النارِ (رواه أحمد) .

— من تَعَظَّمَ فى نفسِه واختالَ فى مِشْيَتِه لَقِىَ اللهَ تعالى وهو عليه غَضْبان .

كشف عورات الناس :

وفى بناءِ الفردِ المسلمِ يَهْتَمُّ الرسولُ اهتماماً كبيراً بالنَّهْيِ عن التجَسُّسِ ومحاولةِ كَشْفِ مساوىءِ الناسِ وعيوبِهم ، قالَ صلواتُ الله عليه :

— من اطَّلَعَ على سِرِّ قومٍ بغيرِ إذنهم فقد حَلَّ لهم أَنْ يَفْقَئُوا عينَه .

من اسْتَمَعَ لحديثِ قومٍ وهم له كارهونَ صُبَّ فى أُذُنَيْهِ الآنُكُ (الرصاص المذاب) .

– كلُّ أُمَّتِي معافىً إلا المجاهرينَ (فإذا كانَ اللهُ قد سَتَرَهُ فليسَ له أَنْ يَكْشِفَ سَتْرَ نفسِه أو أَنْ يكشفَ أَحَدٌ سَتْرَه) .

– لا تَتَبَّعُوا عوْراتِ المسلمينَ ، فإنَّ من تَتَبَّعَ عوراتِ المسلمينَ فَضَحَهُ اللهُ .

وليس من التَّجَسُّسِ أَنْ تتبع إنساناً غَلَبَ على الظنِّ أنه يريدُ الفتكَ بإنسانٍ أو ارتكابَ كبيرةٍ لِتَمْنَعَه من ذلك .

الخــــلافات :

وينزِّهُ الرسولُ الإنسانَ المسلمَ عن الخلافِ ، وقد سَبَقَ أَنْ أَوْرَدْنَا أَنَّ الرسولَ عندما أرسلَ عمرو بن العاص على رأْسِ بَعْثٍ ، ثم أَمَدَّه بجندٍ بزِعامةِ أبى عبيدةَ بن الجراح أَوصى الرسولُ أبا عبيدةَ بقولِه: لا تَخْتَلِفَا .

وكم من مَفَاسِدَ تُرْتَكَبُ بسبب الخلافِ والصراعِ ، وفى المجتمعاتِ أفرادٌ كأنَّما يبحثونَ عن مواطنِ الخلافِ ، ومثل هؤلاءِ يتخلَّقون بأَخلاقٍ تُدَمِّرُ المجتمعَ وتَقْضى عليه .

عيوب أخرى يُحَذِّر منها الرسول :

وفى بناءِ الفردِ المسلم نَجِدُ الرسولَ صلواتُ الله عليه يَتْبَعُ أَرْقَى ألوانِ الفِكْرِ عندما يقولُ : إذا كُنْتُمْ ثلاثةً فلا يَتَنَاجَى اثنانِ دونَ الآخرِ . وينهى الرسولُ عن الجلوسِ على الطرقاتِ إلَّا بِنِيَّةِ أداءِ حقِّها ، فعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ النَبِيَّ ﷺ قال : إياكمْ والجلوسَ على الطرقاتِ ، فقالوا يارسولَ الله : مالَنَا بُدٌّ . فقال : فإن أَبَيْتُمْ إلَّا الجلوسَ فأَعْطُوا الطريقَ حقَّه ، قالوا وماحَقُّ الطريقِ يارسولَ الله ؟ قال : غضُّ البصرِ ، وكفُّ الأَذَى ، وردُّ السلامِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنهيُ عن المُنْكرِ .

الرسول يغرِسُ الأَخلاقَ الْحَسَنَةَ :

وبعد هذه الوقفةِ القصيرةِ مع الرسولِ ، وهو يجنِّبُ الفردَ شُرُورَ النفسِ وآثامَها ، نجيء إلى الجانبِ الآخرِ الذى يَحُثُّ الرسولُ فيه الفردَ المسلمَ على كريمِ الصفاتِ وجميلِ السجايا ، وهنا نَجِدُ ثروةً هائلةً تجعلُ من الإنسانِ صورةً طيبةً ونموذجاً صالحاً يتناسبُ مع الصورةِ التى أرادَها الله للإنسانِ المسلمِ وسنذكرُ فى هذا المجالِ بضعةَ أحاديث تصوِّرُ أهمَّ الجوانب فى بناءِ الإنسانِ المسلمِ .

وأحاديثُ الرسولِ فى هذا المجالِ تَتَدَرَّجُ فى بناءِ الإنسانِ ؛ فهى تَتَّجِهُ فى المقامِ الأولِ لتعليمِهِ الصدقَ والأمانةَ والكرمَ والاخلاصَ فى العمل وما ماثل ذلك ، ثم تَتَّجهُ به بعد ذلك لتعلِّمه رعايةَ الآخَرينَ ، فتحثُّه على صِلَةِ الرحِمِ وأداءِ حقِّ الجارِ والتَّنْفِيسِ عن المُعسِرِ ،.وتنتقلُ الأحاديثُ خطوةً أُخْرَى فتحثُّ على الدقةِ فى اختيار الصديقِ ، ويتَّجهُ الرسولِ فى مجال بناءِ الفردِ إلى اتجاهاتٍ أخرى متعدِّدَةٍ سنراها فيما يلى :

الصــــدق :

فعنِ الصِّدقِ يقول ﷺ :

– عليكمْ بالصدقِ فإنَّ الصدقَ يَهْدِى إلى البرِّ ، والبرُّ يهدِى إلى الجنةِ ، ومايزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصدقَ حتى يُكْتَبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً . وإياكمْ والكذبَ ، فإن الكذبَ يَهْدِى إلى الفجورِ ، والفجورُ يهدِى إلى النارِ ، ومايزالُ العبدُ يكذِبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يكتبَ عند الله كذاباً ، (رواه البخارى) .

– وعن الأمانةِ يَرْوِى علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه الحديثَ الذى سبق أن أَوْردناه فى مطلعِ هذا الكلام مرتبطاً

بالرجل الذى جاءَ من أهل العالية ، ونُعِيدُ هنا الجملةَ الأخيرةَ من هذا الحديث الشريف وهى : « لا دينَ لمنْ لا أمانة له وإن صامَ وصلَّى .

– وعن الإخلاصِ فى العملِ وإجادَته يقولُ عليه الصلاة والسلام : إنَّ الله يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحدُكم عملًا أن يُتْقِنَه .

– وعن أنسبِ وقتٍ للصدقةِ يَرْوى أبو هريرة أن رجلًا جاءَ إلى النبىِّ ﷺ فقالَ له يارسولَ الله : أىُّ الصدقةِ أعظمُ أجراً ؟ قال : أنْ تصَّدَّقَ وأنتَ صحيحٌ تَخْشَى الفقرَ وتأمُلُ الغنى ، وألا تُمْهِلَ حتى إذا بَلَغَتْ الروحُ الحلقومَ قلت : هذا لفلانٍ ، وهذا لفلانٍ .

– وعن صلةِ الرَّحِمِ يَرْوِى أَنَسٌ أنَ رسول الله ﷺ قال : مَنْ أَحبَّ أن يُبسَطَ له فى رِزْقِه وُينْسَأَ له فى عمرِه فلْيَصِلْ رحمه . (متفق عليه) .

– وعن حقِّ الجار يقولُ ﷺ : مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِمْ جارَه .

وقيل للرسول : إن فلانة تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ لكنها تُؤْذِى جيرانِها . فقال : هِىَ فى النَّارِ .

– وعن التَنْفِيسِ عن المدينِ يقول أبو قتادة : سمعت رسول الله ﷺ يقولُ : مَنْ سَرَّه أن يُنْجِيَه اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ فلْيُنَفِّسْ عن معسرٍ ، أو فليَضَعْ عنه ، ويروِى جابرٌ أنَّ الرسولَ ﷺ قال : رَحِمَ اللهُ رجلًا سَمْحاً إذا باعَ ، وإذا اشترى ، وإذا اقْتَضَى .

– وعن الدِّقَةِ فى اختيارِ الصديقِ يقول ﷺ ، المرءُ مع من أَحَبَّ ، ويقولَ : الرجلُ على دينِ خَليلِه ، فلْيَنْظُرْ أحدُكم من يُخَالِلْ . (رواه أبو داود) .

– وعن الحثِّ على البعدِ عن الفقرِ والحرمانِ والعوزِ يقولُ ﷺ : اليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السفلى ، وابْدَأْ بمن تعولُ ، وخيرُ الصدقةِ ما كانَ عن ظهر غنىً (متفق عليه) .

– وعن الرِّفْقِ بالناسِ يقولُ عليه السلام لعائشةَ : يا عائشةُ عليكِ بالرِّفْقِ ، فإنه لا يدخلُ شيئاً إلا زانَهُ ، ولا ينزَعُ من شيءٍ إلا شَانَه ، وإن اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ (رواه مسلم) .

– وعن حسن معاملةِ الْخَدَمِ يقول ابنُ مسعودٍ : كنتُ أضربُ غلاماً لى فسمعت صوتاً من خَلْفِى يقولُ : اعلم يا ابنَ مسعودٍ ... فلمْ أَعْرِفْ صاحِبَ الصوتِ من شِدَّةِ غضبى ،

فلما دَنَا منى صاحبُ الصوتِ وجَدْتُه رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ لى : اعلمْ يا ابنَ مسعودٍ أنَّ اللهَ أقدَرُ عليكَ منكَ على هذا الغلام . فقلتُ يارسولَ الله : هو حُرٌّ لوجهِ الله تعالى : فقالَ : لَوْلَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النار (رواه مسلم) .

★ ★ ★

تلك نماذج قليلة ، وهناك كثير مثلُها من أحاديثِ الرسولِ وهو يربىِّ الفردَ المسلم ، مرتبطةً هذه الأحاديثُ بأحداثٍ ومواقِفَ ، أو كانتْ من التوجيهِ العامِّ ، ولا شكَّ أَنَّ هذا اللونَ من التربيةِ شَغَلَ حياة الرسولِ فى مُقَامِه وسَفَرِه . ويَجِبُ على كلِّ مسلم أن يتعرَّف على هذه التوجيهاتِ وأن يعملَ بها ليسعَدَ فى الدنيا والآخرة .

الرسول يربى المجتمع الإسلامى

عايَشْنا رسولَ اللهِ آنفاً وهو يَبْنِى الفردَ المسلمَ ، ورأيناه كذلك وهو يُقِيمُ الروابطَ بينَ الأفرادِ بالمؤَاخاةِ ، ثم وهو يَبْنِى المساجدَ تَجْتَمِعُ فيها جموعُ المسلمينَ فى الجمعةِ والجماعةِ وغيرها ، ونريدُ أن نُعَايِشَ الرسولَ صلواتُ اللهِ عليه وهو يبنى المجتمعَ بِخَلْقِ روابطَ بينَ أفرادِه وجماعاتِه ليتألَّفَ من هؤلاءِ الأفرادِ وهذه الجماعاتِ مجتمعٌ مُتَحَابٌّ مُتَعَاوِنٌ .

والذى يَتَتبَّعُ أحاديث الرسولِ وتَصَرُّفاتِه فى هذا المجالِ يجدُه قد بَذَلَ جهداً كبيراً فى الإرشادِ لتكوينِ مجتمعِ الأسرةِ ، وهو المجتمعُ الصغيرُ الذى يتكوَّن من وَحَدَاتِه المجتمعُ الكبيرُ ، وقد عُنِىَ الرسولُ بمجتمعِ الأسرةِ عنايةً كبيرةً ، فحثَّ على الاهتمام باختيار الزوجةِ الصالحةِ بقوله « تَخَيَّروا لِنُطَفِكُمْ فإنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ » ثم حثَّ على العنايةِ بالأولادِ والعدالةِ بينَهم فى العطاءِ والمعاملةِ ، وأفَاضَ فى الحديثِ عن بيانِ حُقُوقِ كلٍّ من الزوجِ والزوجةِ تِجَاه الآخرِ ، وأوْضَحَ التكافلِ بينَ الوالديْنِ والأبناءِ ، وألْزَمَ الأبناءَ برعايةِ الآباءِ حتى مع اختلافِ الدِّينِ ، يروِى أحمدُ أن « قتيلةَ » قَدِمَتْ على ابنَتِها أسماءَ بنتِ أبى بكرٍ ، وكان أبو بكر قد طلَّقَها فى الجاهليةِ ، ولما جاءَ الإسلامُ

لم تدخلِ « قتيلة » دينَ اللهِ ، فتردَّدَتْ أَسماءُ فى استقبالِ أُمِّها وقبولِ هَدَايَاهَا وبعثَتْ إلى رسولِ اللهِ تسأَلُ عن هذا ، فأَخْبَرَها الرسولُ أن تُحْسِنَ استقبالَها وتقبلَ هداياها ، ونَزَلَتْ فى ذلك الآيةُ الكريمةُ « لا يَنْهَاكُمْ اللهُ عن الذينَ لم يُقَاتِلُوكُمْ فى الدينِ ولم يُخْرِجُوكُمْ من دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ » (الممتحنة الآية الثامنة) .

ونَظَّمَ الرسولُ كذلك حقوقَ ذَوِى القُرْبَى ، وغيرَ هذه الموضوعاتِ الخاصَّةِ بالأُسْرَةِ ، وحُسْنِ تكوينِها وتآلُفِها ، وسنذكرُ صوراً مِنْ هذه المواقِفِ فى الأَجزاءِ التاليةِ إنْ شاءَ اللهُ .

وفى بنَاءِ المجتمعِ الإسلامىِّ اتَّجَهَ الرسولُ اتِّجاهاً أَشْمَلَ وأَفْسَحَ ، ورسَمَ خطوطاً لو اتَّبَعَهَا المسلمونَ لتكوَّنَ منهم أعظمُ مجتمعٍ عَرَفَتْهُ البَشَرِيَّةُ ، وشَمِلَتْ هذه الخطوطُ تنظيمَ الصِّلَةِ بين الحاكِمِ والمحكوم ، وشَرْحَ النظامِ الاقتصاديِّ الذى يُبْرِزُ التزاماتِ الغنىِّ وحقوقَ الفقراءِ ، ويؤَكِّدُ ضرورةَ تطبيقِ التَّشْرِيعَاتِ الإسلاميَّةِ التى حَفَلَتْ بها فترةُ المدينةِ ، وبجانبِ هذه الأُسُسِ الكبيرةِ كانَ الرسولُ يَتَلَمَّسُ الوسائلَ ليجعلَ كلَّ إنسانٍ يحسُّ بأنه جزءٌ من هذا المجتمعِ الإسلامىِّ ، وأَنَّ عليه أن

يعمل لإسعادِه ورَفعِ شأنِهِ ، وأن الفرْدَ لا يُحَقق النجاحَ لنفسِه إلا بنجاحِ مُجْتَمَعِه .

وقد كان من أَهَمِّ ماعُنِىَ به الرسولُ صلواتُ الله عليه أن يُحِسَّ المسلمُ **بشمولِ الأُخُوَّةِ بينَه وبينَ جميعِ المسلمين** أخذاً من قولِهِ تعالى « إنَّما المؤمنونَ إخْوَةٌ » وهذا هو المعْنَى الذى اهتمَّ الرسولُ تمامَ الاهتمامِ بتأْكِيدِه وشرْحِه وتَكرَارِه فى أحاديثَ ومناسباتٍ متعددةٍ قال عليه السلام :

– المسلمُ أَخُو المسلمِ لا يُسْلِمُه ولا يَخْذُلُه .

ثم يتَّجِهُ الرسولُ لبيانِ مستلزماتِ هذه الأُخُوَّة ، وأنَّ **تقوِيَتَها فيها خيرٌ للجميعِ** ، قال عليه السلام :

– المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيَانِ يشدُّ بعضُه بعضاً . (متفق عليه) .

– لا تَحَاسَدُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً (رواه مسلم) .

– مَثَلُ المؤمنينَ فى تَوَادِّهم وتَرَاحُمِهِم وتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجسد إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الأعضاءِ بالحُمَّى والسَّهَرِ .

وينتقل الرسول من تصويرِ الأُخوّةِ على هذا النمطِ إلى صورةٍ أُخْرَى أرْفَعَ ، هي أن يُحِبَّ المسلمُ لأخِيه ما يحبُّ لنفِسه ، قال عليه السلام :

– والَّذِى نفِسىْ بِيَدِهِ لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخِيه ما يُحِبُّ لنفسِه (الشيخان) .

ثم يَصلُ الرسولُ إلى القِمَّةِ عندما يَنْقُلُ الحبَّ إلى العمل لصالِح من أَحَبَّ ، فإذَا كانَ الإسلامُ أَلْزَمَ المسلمَ أن يُحِبَّ أخاَه المسلمَ ، فإنَّ عليه رِعايَةً لهذه الأُخُوَّة أَنْ يساعدَه ويعملَ لإسعادِه ، وفى ذلك نجِدُ فيضاً من أحاديثِ الرسولِ التى إنْ وَعَاهَا المسلمونَ واتَّبعُوها حقَّقُوا لمجتَمَعِهم أسعدَ حياةٍ ، قال عليه السلام :

– ألا أُخْبِرُكُمْ بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ ؟ قالوا : بلى يارسولَ اللهِ ، قال إصلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فإنَّ فَسَادَ ذاتِ الْبَيْنِ هى الحَالِقَة (الْمَهْلَكَة) (رواه أبو داود) .

– من نَفَّسَ عن مُؤْمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً من كُرَبِ الآخِرة ، ومن يسَّر على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه ،

ومَنْ سَتَرَ مسلماً سَتَرَه اللهُ فى الدنيا والآخرةِ ، واللهُ فى عونِ العبدِ ما دامَ العبدُ فى عونِ أخيه (متفق عليه) .

– إن شَجَرَةً كانت تُؤْذِى المسلمينَ فجاءَ رجلٌ فَقَطَعها فدخلَ الجنةَ (رواه مسلم) .

– سأل أبو برزةَ النبىَّ ﷺ أَنْ يعلِّمَه طريقاً يَنْتَفِعُ به ، فقال له عليه السلام : اعزِلْ الأَذَى عن طريقِ المسلمينَ

– عُرِضَتْ علىَّ أَعْمَالُ أُمتي حَسَنُها وسيِّئُها ، فوجدتُ من محاسنِ أعمالِها الأَذىَ يُمَاطُ عن الطَرِيقِ .

– أَنْ تَعْدِلَ بينَ الاثنينِ صدقةٌ ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ

– ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً فيأْكُلُ منه إنسانٌ أو دابَّةٌ إلا كانَ له صدقة (رواه مسلم) .

وهكذا نَجِدُ أَنَّ أحاديثَ الرسولِ اشْتَمَلَتْ العملَ الصالحَ الذى يُوَجَّهُ لخدمة واحدٍ بعينِه أو يُوَجَّهُ لخدمةِ المجموعِ بدونِ نظرٍ للأفرادِ ، وكانَ الرسولُ فى قيادةِ المجتمعِ قُدْوَةً طيبةً يُباشِرُ هذه الاتجاهاتِ والفضائلَ ، فكانَ يدعُو بِعَمَلِه بمثل ما يَدْعُو بقَوْله ، مما خَلَقَ مجتمعاً متعاطفاً مُتَحاباً ، زَلْزَلَ عروشَ الباطلِ وأَقَامَ صرحَ الإسلامِ فى أَقْصَرِ فترةٍ عَرَفَها التاريخُ .

أخلاق إسلامية يغرسها الرسول

هناكَ أحاديثُ شريفةٌ تَرْتَبِطُ بأحداثٍ محدَّدَةٍ رَوَيْنَا منها ونحن نتكلمُ عن الرسولِ صلواتُ الله عليه وهو يَبْنِى الفردَ المسلمَ ، أو المجتمعَ الإسلامىَّ ، وهناك أحاديثُ لا نَعْرِفُ أنها ارتبطتْ بحادِثَةٍ معيَّنَةٍ وإنما هى ثَقَافَةٌ عامَّةٌ لجماهيرِ المسلمينَ ، وهى كذلك تغْرِسُ فى نفوسِهم أخلاقَ الإسلامِ فيما يقابِلُه المسلمُ من شئونٍ .

ونقطةٌ أخرىَ نُقَدِّمُ بها كلامنا عن الأخلاقِ الإسلاميةِ ، هى أنَّ الإسلامَ قدَّم للمجتمعِ أخلاقاً لم تكنْ مَوْجُودَةً من قبل ، بل لا يقوى المجتمعُ البشرىُّ حتى الآن أنْ يَتَبَنَّى الأخلاقَ الإسلاميةَ بكلِّ اتجاهاتِها ، فقبلَ الإسلامِ كانتْ العدالةُ والوفاءُ بالوعدِ تُعَدُّ ضَعْفاً ، ولهذا هجا شاعِرٌ إحدَى القبائِل بأنها لا تغدِرُ ولا تَظْلِمُ فقال :

قبيلَتُـه لا يَغْـدِرُون بِذِمَّـةٍ
ولا يَظْلِمُون الناسَ حبَّةَ خردلٍ

ومثل ذلك ما قاله الآخر :

ومنْ لا يَظْلَمِ الناسَ يُظْلَمِ .

فجاءَ الإسلام وفَرَضَ العدالةَ ، بل أَوْصَى بما هو أسمَى من العدالةِ وهوَ الإحسانُ .

وقبلَ الاسلامِ لم تَكُنْ المُسَاوَاةُ موْجودةً ، إذْ كانَ العالَمُ مُنْقَسماً إلى سادةٍ وعبيدٍ ، ومع اختفاءِ الرقِّ فى عصرِنَا الحاضرِ فإنَّ المساواةَ لم تَكْتَمِلْ حتى الآنَ ، فلايزالُ هناكَ فى أرْقَى البلادِ نَزَعَاتُ التفرقةِ العُنْصُرِيَّةِ،ولا يزالُ فى العالَمِ ظُلْمٌ ونَهْبٌ يَتَّضِحَانِ من الاستعمارِ أو بَقَايَاهُ ، ولا يزالُ هناكُ جَبَابِرَةٌ يُخِيفُونَ الناسَ ويَسْعَدونَ بأنهم مصدرُ خَوْفٍ ورُعْبٍ ، وهذا وسِوَاه لأنَّ المجتمعَ البشرىَّ لم يَصِلْ بَعْدُ إلى الغايةِ التى سعى لها الفكرُ الإسلامىُّ فى مجالِ الأخلاقِ .

ما الأخلاقُ الإسلاميَّةُ التى قدَّمها رسولُ الإسلامِ وجَهَدَ ليغرِسَها فى المجتمعِ الإسلامىِّ ؟ ذلك ما سنحاولُ الحديثَ عنه هنا :

ومن قِراءَاتى لأحاديثِ سيدِنا رسولِ اللهِ أستطيعُ أنْ أبْدَأَ بأنْ أكوِّنَ من الأحاديثِ المتناثرةِ صورةً متكاملةً لآدابِ اجتماعٍ

من الاجتماعاتِ أو بحفلٍ من الحفلاتِ ، **فإذَا كنتَ مُقدِماً على إجتماعٍ ، فإن الرسولَ يَضَعُ لك إرشَاداً عن كلِّ مرحلةٍ من** مَرَاحِلِ هذا الاجتماعِ أو الحفلِ ، من الاستعدادِ له .... حتى الانتهاءِ منه ، ومنَ الواضِح أنَّ الرسولَ لم يَذْكُرْ هذه الأحاديثَ بهذَا التَّسَلْسُل ، ولكنىِّ أستطيعُ أنْ أَضُمَّ الأحاديثَ بعضَها إلى بَعْضٍ لتشملَ هذه الصورةَ ، وبعدَ ذلك نُسَجِّلُ مجموعةً أُخرى من الأحاديثِ عن صورٍ أخرى من الأخلاقِ الإسلاميةِ .

وأولُ ما نذكُرُهُ مُتَّصِلًا بالاشتراكِ فى الاجتماعاتِ أنَّ المسلمَ إذا كانَ مُقْبِلًا على اجتماعٍ خاصٍّ أو عامٍّ أنْ يُعِدَّ نفسَه لذلك **بالنظافةِ ، وحُسْنِ السَّمْتِ ، وألَّا يأكُلَ بَصَلًا أو ثَوْماً أو طعاماً** تُؤْذِى رائِحَتُه ، وفى ذلك يقولُ عليه السلام :

- بُنِىَ الدينُ على النَّظَافَةِ ، والنظافةُ من الإيمانِ .
- مَنْ أَكَلَ هذه (البصلَ أو الثومَ) ، فلا يَغْشَى مَجْلِسَنَا حتى يزولَ منه الريحُ .
- كانَ رسولُ اللهِ يكرَهُ رائحةَ العَرَقِ فى المسَجدِ .
- إن اللهَ يُحِبُّ أن يَرَى أَثَرَ نعمتِه على عبدِه .

فإذا طرقتَ البابَ للدخولِ فَسَأَلَكَ أصحابُ البيتِ : مَنْ الطارِقُ ؟ فلا تَقُلْ : « أَنَا » فقط ، وهذا مايَحْدُثُ فى كثيرٍ من الأحوالِ ، بل قُلْ : أَنا فلانٌ ، فعن جابر قال : أتيتُ الرسولَ صلواتُ الله عليه فَدَقَقْتُ البابَ ، فقالَ : مَنْ ذَا ؟ فقلتُ : أنا ، فقال أنا ! أنا ! كأنَّ لا أَحَدَ إلاأنتَ . إذا دقَّ أحدُكُمْ البابَ فَسُئِلَ : مَنْ الطارق ؟ فليقلْ : أنا فلان .

وإذا دخلتَ إلى مجتمعٍ قليلِ الأشخاصِ وقامَ لك الحاضرونَ فَصَافِحْهُمْ :

فعَنْ أبى الخطَّابِ قال : قلتُ لأنسٍ : أَكانتْ المُصَافَحَةُ فى أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ قالَ : نعم .

ولا تَنْتَظِرْ أن يقومَ لك الحاضرونَ ، بل قُلْ : السلامُ عليكم ورحمةُ الله ، واجلسْ حيثُ انتهى بك المجلسُ ، فقد دخلَ الرسولُ على جماعةٍ فقامُوا له ، فقال : لاتَقُومُوا كما تَقُومُ الأعاجمُ ، فإنَّمَا أَنَا ابنُ امرأةٍ كانت تَأْكُلُ القَدِيدَ بمكة .

وإذا كانَ اللقاءُ مع رجلٍ شديدِ الصِّلَةِ بالإنسانِ **جازَ عِنَاقُه وتَقْبِيلُه** ، فعن عائشةَ رضى الله عنها قالت : قَدِمَ زيدُ بن حارثة المدينةَ وجاءَ إلى بيتى واستأذنَ فاستقبله الرسولُ وعانَقَه وقبَّله .

وإذا جلسَ القادمُ فينبغى ألَّا يكونَ مجلِسُه فى مكانِ رجلٍ قامَ له إلا أن يأذَنَ له هذا الرجلُ بذلك .

فعنْ ابنِ عمر قال إن رسول الله ﷺ قال :

ـ لا يُقِيمَنَّ أحدُكم رجلًا من مجلِسِه ثم يجلِسُ فيه ، ولكنْ تَوَسَّعُوا وتَفَسَّحُوا .

وعلى القادم ألا يفرِّق بين اثنين فى مجلس واحد إلا بإذنهما قال عليه السلام : لا يَحلُّ لرجلٍ أن يُفَرِّقَ بين اثنينِ فى مجلسٍ إلا بإذنِهما .

وفى تقديرِ الإنسانِ للحاضرينَ **ينبغِى له أَنْ يلاحِظَ السنَّ وأقدارَ الناس** ، فقد قال الرسولُ ﷺ : ما أَكْرَمَ شابٌّ شيخاً لسنِّه إلا قيَّضَ الله له من يُكْرِمُه عند تقدُّم سنِّه . وعن السيدة عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : أنزِلُوا الناسَ منازِلهم .

وإذا تكلَّم الحاضرونَ فليترك الإنسانُ مَالَا يَعْنِيهِ فلا يتكلمُ فيه ، قال عليه السلام : من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ مالا يَعْنِيه (رواه الترمذى) .

ـ وإذا كان هناك طعامٌ فإنَّ الرسولَ يضع **آدابَ تناولِ الطعامِ** فى أَرْوَعِ صورةٍ ، قال عليه السلام :

– كُلْ بيمينِكِ ، وكلْ مِمَّا يَلِيكَ .

– نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتى نجوعَ وإذا أكلْنا لا نشبَعُ (متفق عليه) .

– عن عائشةَ قالت : أولُ بِدْعةٍ حدثتْ بعدَ رسولِ الله ، الشَبَعْ ، ورسولُ الله لم يَشْبَعْ قط ، وكان طعامُه الكفافَ .

– وعنها أيضاً قالت : لَمْ يَمْتَلِئْ جوفُ النبيِّ شبعاً قطُّ ، وكان فى أهِله لا يسألُهم طعاماً ولا يَتَشَهَّاهُ ، إن أُطْعَمُوه أَكَلَ ، وما يقدَّمُ له يَقْبَلُه .

– ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنِه ، بحسبِ ابنِ آدمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه ، فإن كانَ لا بدَّ آكلًا ، فثلثٌ لطعامِه ، وثلث لشرابه ، وثلثٌ لنَفَسِه .

– إياكُمْ والبِطْنَةَ فإنها مَكْسَلَةٌ عن العبادةِ ، ومَفْسَدةٌ للجسم ، ومُؤدِّيةٌ إلى السَّقَم ، وعليكم بالقصدِ فى قوتكِم ، فهو أبعدُ عن السَّرَفِ ، وأَصَحُّ للبدنِ ، وأقوى على العبادةِ .

– لا تُمِيتُوا القلبَ بكثرةِ الطعامِ والشرابِ ، فإن القلبَ كالزرعِ ، يموتُ إذا كَثُرَ عليه الماءُ .

★★★

بقى بعد ذلك أن نُورِدَ مَجْمُوعةً من الأحاديثِ عن صورٍ أُخرَى رائعةٍ من الأخلاقِ الإسلاميةِ ، قال ﷺ فى **الرجلِ يُخيفُ الناسَ فَيَتَّقِى الناسُ شرَّه** : إن شرَّ الناسِ من وَدَعَه الناسُ اتقاءَ شرِّه .

وكان رسول الله **يُوصِي بالبهائِم** ، ويأمُرُ بحسنِ استعمالها ، ومن الأحاديثِ الشهيرةِ فى ذلك قوله :

– دَخَلَتْ امرأةٌ النارَ فى هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا ، فلا هى أَطْعَمَتْهَا وسَقَتْهاَ ، ولا هى تركتها تأكلُ من خَشَاشِ الأرضِ .

– اتَّقُوا اللهَ فى البهائِم المُعْجَمَةِ .

– غَفَرَ اللهُ لامرأةٍ مُذْنبَةٍ لأنها رَأَتْ كلباً يَلْهَثُ من العطشِ فقدَّمتْ له الماء .

بل كان الرسول **يوصِي بالأشياء التى لها ارتباطٌ بالإنسانِ** ، ومن هنا كان يُطْلِقُ أسماءً طيبةً على بعض هذه الأشياء ، فكانَ يُسَمِّى قصعَتَه « **الغَرَّاء** » ، ومرآتَه « **المُدِلَّة** » .

ويَعِدُ الرسولُ صلواتُ الله عليه **الذين يقضونَ حوائجَ الناس** بالنجاةِ من النار فيقولُ : إن لله تعالى عباداً اختصَّهُم بحوائجِ الناسِ ، يَفْزَعُ إليهم الناسُ فى حوائِجهم ، أولئكَ هم الآمنون من عذابِ الله .

اختلاف الحكم باختلاف الظروف :

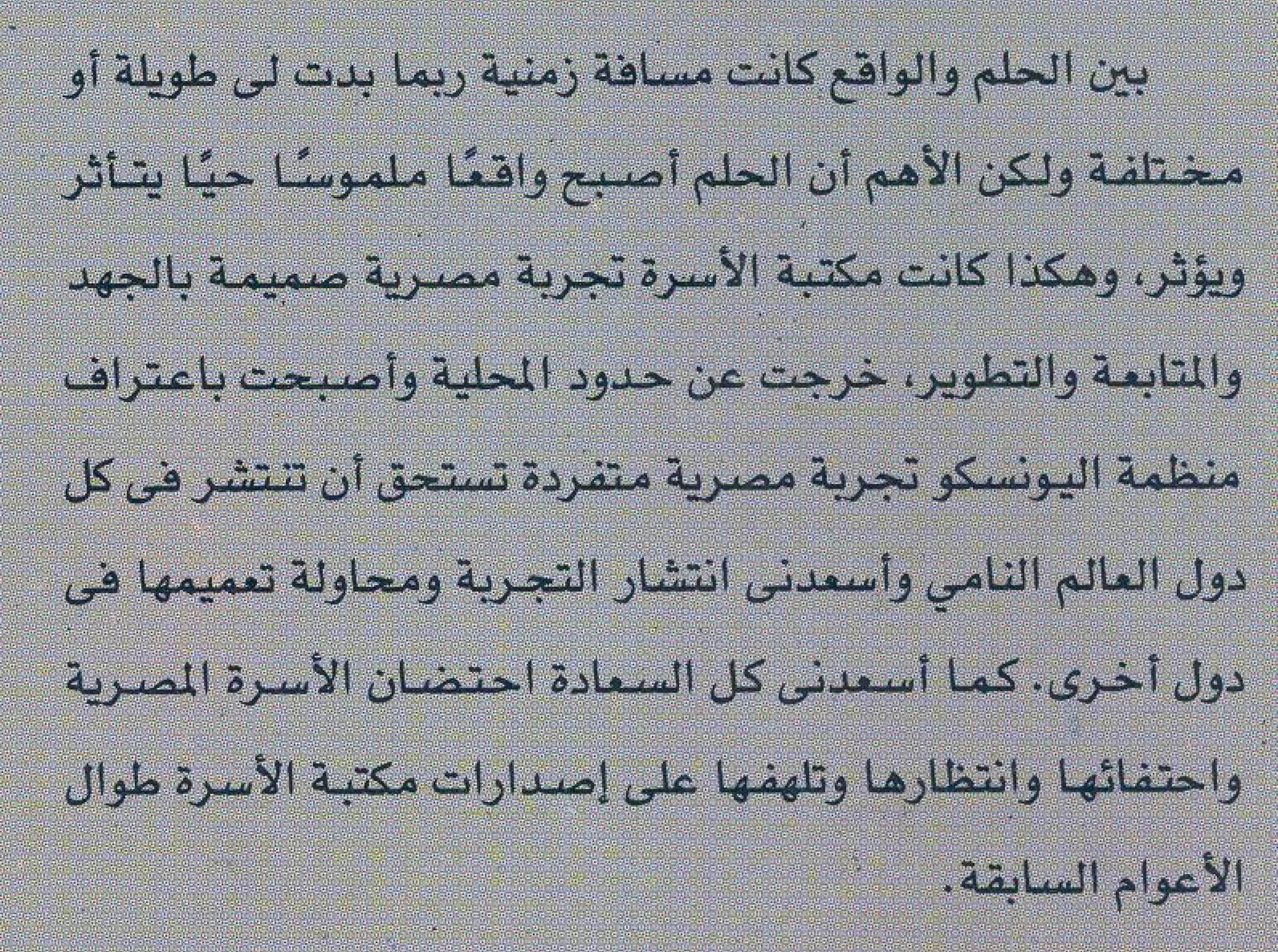
ونَخْتِمَ هذه المجموعةَ من الأحاديثِ بذكر حديث **اختلافِ الحكم باختلافِ الظروفِ** ، فقد رَوَى سَلَمَة بنُ الأكوع أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ فى عامٍ من الأعوامِ عن الأضحيةِ : مَنْ ضَحَّى منكم فلا يُصْبِحَنَّ بعد ثالِثَةٍ وفى بيتِه من أُضْحِيَتِه شيءٌ ، فلما كانَ العامُ المقبلُ قالوا : يارسولَ اللهِ نفعلُ كما فعَلْنَا فى العامِ الماضِي ؟ فأجابَ : لا ، كُلُوا وأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا ، فإن العامَ الفائتَ كان بالناسِ جَهْدٌ ، فأردتُ أن تُعِينُوا على الجهْدِ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١١٤٥٤

I.S.B.N 977 - 01 - 7310 - X





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

سعر رمزى خمسون قرشا   مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

